بقلم : الدكتور محمد أحمد العزب

الأسس القرآنية للتقدم وحوار حول بعض مقولاته

[١]

■■ أعرف أن الأستاذ الدكتور محمد أحمد خلف الله واحد من المفكرين الجادين الذين يحاولون ربط الفكر الإسلامي بقيم الحياة المعاصرة ، وفهم هذه القيم الحياتية على ضوء من الثوابت الإسلامية الأصيلة ، وهو ينزع في كل ذلك عن موقف اجتماعي محدَّد ومعروف ، نختلف معه حوله ، إلاَّ أن هذا الاختلاف لا يمكن أن يصل إلى حد القطيعة الفكرية ، فتلك حركة انسحابية ليست في صالح دعوة ما ... كذلك لا يمكن أن يصل الخلاف إلى حد الاتهام أو الإدانة ، فتلك إفرازات انفعالية إن أرضت عواطف مستوفزة في آن معين ، فقد لا ترضي أي حس عقيدي هادف إلى كسب بعض المواقع ، لا إلى التفريط في بعضها حتى على مرحلة من مراحل الطريق .

من هذا المنطلق ، آمل أن أدير هذا الحوار المخلص حول بعض المقولات المقلقة التي وردت في كتاب الأستاذ الدكتور خلف الله الأخير : (الأسس القرآنية للتقدم) الذي صدر في سلسلة : (كتاب الأهالي) [العدد الثاني] ... مكرراً أن هذا الحوار ليس تشهيراً بمجموعة الأخطاء التي وقع فيها قلم كاتب مسلم ، وليس محاولة ساذجة لإدانته أو إدانة تاريخه الفكري ، فانا لا أملك حق التجريح والتعديل .. على اننا نعمل جميعاً تحت راية واحدة ، هي راية إسلامنا العظيم ، وإن اختلفت بنا شعاب الرؤية . فبدا لبعض الوقت اننا على طرفي نقيض !!

[٢]

وبدءاً لا يملك أي منصف إلاَّ ان يقدر للأستاذ رؤيته لقضية التقدم من الوجهة القرآنية عامة ، فحقيقي تماماً أن القرآن الكريم يشكل ثورة تقدمية عالمية ، تتسم في جوهرها بالصفاء من جهة ، وبالشمول والاستمرارية من جهة أخرىٰ ، وقد حدد الباحث الجليل أسس هذه الثورة القرآنية في اتجاه التقدم فيما سماه : بـ (التنمية الثقافية .. وتحرير الإنسان من الخوف .. وإعمال العقل البشري .. والمحيط الإنساني .. والتشريعات .. والمبادىء الإنسانية .. والهدف من التقدم) .. وربما يضيف الفكر الإسلامي المعاصر إلى هذه الأسس ، وربما يدمج عنصراً منها بعنصر آخر ، ولكنها في النهاية تظل أسساً حقيقية تحمل ملامح الأصالة والتجدد في آن معاً .

كذلك لا يملك أي منصف إلاَّ أن يقدِّر للأستاذ خطَّه المنهجي الذي لم يفلت منه على مسار الفكرة الرئيسة التي أراد إبرازها ، وهي في عمومها تتحدد في هذه الصيغة الواعية : (التقدم مضمون البلاغ القرآني) .

والفكر المنهجي في الكتابات الإسلامية المعاصرة عملة نادرة ، وأندر منه أن يحتفظ الكاتب بقصده من وراء هذا السعي المنهجي ، ولا يلتوي به إلى تشويه الحقائق ، أو صرفها عن سوائها القاصد ، لأن معنى ذلك التشويه ـ إذا حدث ـ أن تستحيل الكتابة إلى حقد ذاتي ، وإلى نوع من إشهار الإفلاس أمام صمود الحقائق الدينية ونصاعتها ، لأن الهارب من مواجهة هذه الحقائق ، بطمسها ، أو تحريفها ، يعلن عن عجزه الفادح أمام مواجهتها أو الحوار معها حواراً مبطناً بفقه حقائق الأشياء .

[٣]

مواطن الاختلاف :

ومواطن اختلاف الرأي بين الأستاذ الدكتور محمد أحمد خلف الله وبيننا ، تتجسد في تصوّره للعلاقة بين النص الإسلامي من جهة ، وبين فهم الكون فهماً عقلياً مفارقاً للنص من جهة أخرىٰ ، فحين يتصدىٰ الكاتب لقضية دفع القرآن الكريم إلى النظر في الكون ، وتدبر السنن الإلٰهية في خلقه ، وصولاً إلى معرفة إنسانية تساعد على تحقيق التقدم ، يقول :

(وهذا كله إنما يعني أن القرآن الكريم ينص على أن هذا الكون بمن فيه وما فيه ، يفهم فهماً عقلياً ، بعيداً عن النصوص الدينية ، وهذا الفهم هو السبيل إلى التقدم) (ص : ٩) .

■ إن إهدار جانب القتال والصراع الجسدي في الإسلام إهدار لنصف المعادلة العاقلة وتعطيل لجدلية الفعل التي تشكل تتويجاً تـاريخياً لجدلية الفكر إذا استحال أن يزهر الفكر في تيبُّس عالم بلا تفكير ■

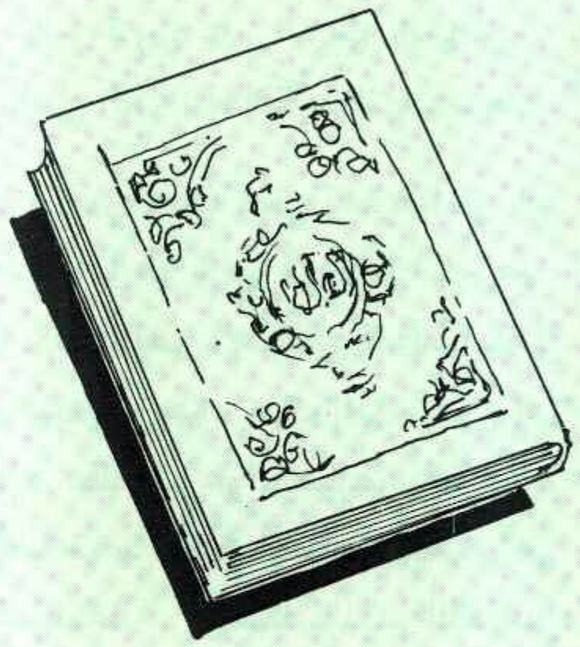

وفي يقيني أن العلاقة بين الإسلام الذي أساسه القرآن وبين التقدم ، علاقة عضوية كمـا يشير إلى ذلـك الباحث الجليل نفسه في (ص : ٨) (... وأما أن القرآن الكريم ينص على أن الكون بمن فيه وما فيه ، يفهم فهماً عقلياً بعيداً عن النصوص الدينية ، وأن هذا الفهم هو السبيل إلى التقدم ...) فقد أخشى أن يوحي مثل هذا السياق إلى المتلقي ، بأن فهم العقـل المسلم لظواهـر الطبيعة والكون يجب أن يتم (بالضرورة) في غياب النص الديني ، وهو هنا النص الإسلامي الذي حـدده القرآن الكـريم بالذات ، مع أن هذا النص نفسه ـ فيما نعتقد ـ هو الذي حرَّض على إيقاظ العقل الإنساني ، وعلى استثمار طاقاته الخلاَّقة في كشف غوامض الأشياء ، فكيف يتم هذا الفصل البات بين الحافز والفعل التاريخي ، مع أن من المسلَّمات ـ حتى في الفكر الاجتماعي المعاصر ـ أن نوعية الحافز تشكل جزءاً صميماً من جوهر الفعل التاريخي وتحدد له منطلقـاته وغاياته على السواء ؟

نفهم أن تكـون قـوانين العمليـة التجريبية مستقلة عن بواعثها في لحظة التجريب المعملي ، أمَّا أن تكون مستقلة عن هذه البواعث على الإطلاق ، فقد لا يملك أحد أن يجترح مثل هذا الفهم هكـذا ببساطـة .. وهذا مـا نعتقد أن الأستاذ الجليل قد يوافقنا عليه .

أن يُفهم الكـون فهماً عقليـاً ، هذا لا خلاف حوله ، وأمَّا أن نفترض حتمية مبارحة مثل هذا الفهم العقلي للنص الإسـلامي ، فهذا مـا تنبه إليـه حتى المؤلف نفسه في (ص : ٤٧) فخفف من الإطلاق السالف وقال :

(... هذا الكون قابل أن يفهم عقلياً . وبدون حاجة ـ في بعض الحالات ـ إلى النصوص) .

وهذا الاستدراك المتمثل في قوله : (في بعض الحالات) يمكن أن يكون مقدمة لاستدراك أشمل ، يضع الاجتهاد العقلي في فهم الكون في حالة عدم تعارض كلي مع النص الإسلامي ، الذي انبعث أساساً من محـاضنه ، وحمـل بـالضـرورة كـل مـلامـح تكـويـنـاتـه وخصائصه .

وتأسيساً على هذه المقدمة يمكن أن نرفض المواجهة المقارنة بين السلف والخلف في قضايا فهم الكون والأشياء ، لأن الخلف هنا امتداد للسلف ، وإذا كان هؤلاء السلف قد حققوا هذه الإنجازات العلميـة الخارقـة تحت مظلـة النص الإسلامي ، وبدافع منه ، فإن الخلف مطالبون بـالبذل نفسـه على الصعيد نفسه ، ويصبح استحداث أية فجوة بين النص والجهـد العلمي الموضـوعي ، افتراضاً غير واردٍ ولا مقبول ، فهؤلاء وهؤلاء يعملـون بـدافـع من النص الإسلامي ، ويتوجهـون وفق شروطـه وليس بلا شروط .

[٤]

بين السلف والخلف :

وصحيح أن الإسلام القرآني ينبغي أن يكون الأساس في فهم كـل الظواهـر الحياتية والدينية ، كما يشير إلى ذلك المؤلف ، ولكن الاجتهادات المسلمة في فهم القرآن الكريم ليست (عقبات مقدسة في سبيـل التقـدم) كمـا يقـول في (ص : ١٢) ، وإنما هي شروح تكتسب شرعية استمراريتها من اقتدارها الفذ والتاريخي على النفاذ إلى أبعاد وأعماق ليس من السهل أن يتجاوزهـا العقل المعاصر ، إلاَّ بعد استيعابها وتمثلها ، ربما لأن أصحابها كانوا يعملون من خلال وعيهم الصافي بحقائق النص ، وحقائق اللغة الحاملة للنص ، وأيضاً من خلال بُعدهم عن الجدليـات المغرقـة التي انقضت ـ من بعد ـ ظهر النص بما يحتمل وبما لا يحتمل على السـواء .. فلماذا نغضب في وجه هذا الفهم الصافي ، ما دام قادراً على إضاءة طريقنـا إلى الحقيقة ؟

إن كثيراً من الباحثين المعاصرين يفتعلون صداماً غير وارد بين جهودنا الآنية وجهود هؤلاء الغابرين الرائعين ، ربما لأنهم يضعوننا في مواجهة هؤلاء وليس امتداداً لهم ، مع أن سوء الفهم في

الأسس القرآنية للتقدم وحوار حول بعض مقولاته

هذه القضية يؤكد جدلية أن نختزن نحن تجارب السابقين ، وأن نستعين برؤيتهم الثاقبة التي كانت وستظل أقرب إلى طبيعة الفهم عن النص ، بحكم الواقع التاريخي والعقيدي الذي عاشوه ، وليس معنى ذلك أن نلغي اجتهاداتنا نحن ، فكلنا مطالب بإثراء البحث العلمي والفكري والفني من خلال اقتداره الخاص على العطاء في هذا الحقل أو ذاك ، بشرط أن نملك الاجتهاد ، وأن نؤهل ذواتنا لاحتوائه ... أمَّا أن يكون كل نصيبنا من الاجتهاد أن نرمي المجتهدين السالفين بالتجمد والورائية ، فذلك صنيع يرفضه منطق إسلامنا ، الآن ، وقبل الآن وبعد الآن على السواء .

والدليل المؤكد على جدارة السالفين بقيادة الفكر التاريخي ، أو بإضاءة الطريق إلى هذا الفكر التاريخي على الأقل ، أننا ما نزال نرجع إليهم ـ وقد فعل المؤلف الفاضل ذلك دائماً ـ في فهم النص ، وفي إضاءة الحقيقة العلمية .

[٥]

النص والمصلحة العامة :

قضية أخرىٰ أثارها الأستاذ الدكتور محمد أحمد خلف الله ، في كتابه : (الأسس القرآنية للتقدم) ، وهي قضية تعارض النص مع المصلحة العامة للمسلمين ، وهي قضية ينبغي التحوط فيها ـ كما نعتقد ـ بلا حدود ، لأن التعارض غير وارد على الإطلاق ، وإنما هي مراحل حضارية على طريق التطور الإنساني ، ربما تبتعد مرحلة منها عن المدلول الحرفي للنص ، ولكن هذا لا يعني تعطيل النص أو إدانته أو تعارضه ، فدورة الحضارات تعود إلى المنطلقات نفسها التي بارحتها ـ كما يقول توينبي ـ وهناك تجد النص في انتظارها صالحاً للتعامل معها ما يزال ، ولا يتصور أن تشريعاً سماوياً يمكن أن يطرأ عليه التعطيل أو ضرورة التعديل ، إلَّا إذا أتى هذا التصور من فكرٍ آني محدود ، قد لا يرى أبعد من حدود الرؤية المتاحة له ، ومع ذلك يتجاسر فيتخيل أنه قادر على فهم الآباد والآماد .

إن الرق الذي تصوره الفكر البشري إفرازاً لمرحلة حضارية بائدة لا يمكن أن تعود ، يدق الآن أبواب عصرنا الحاضر بأكف من حديد ، ويتمثل ليس في عبودية مادية واحدة ، وإنما في عبوديات كثيرة تنكفىء في سبيل تطلعاتها إلى الحرية دون ما رسمه الإسلام لتحرير الأرقاء من خرائط بمسافات هائلة .. فكيف يقال : إن التشريع ـ أو أبعاضاً من هذا التشريع ـ يمكن أن يطرأ عليها التعطيل أو حتمية التعديل ؟

يستدل المؤلف بأنصبة المقاتلين من الغنائم والأنفال التي حددها القرآن الكريم ، ويرىٰ أن هذه الأنصبة كانت حقاً للمقاتلين يوم كان الجهاد من مسؤوليات (القطاع الخاص) ، ثم جاء التقدم العلمي فتكفلت الدولة بأدوات القتال ، وبنفقات المقاتلين ، أي أن القتال تحوَّل وأصبح من مسؤوليات (القطاع العام) ـ وهذه مصطلحات الباحث ـ ثم يقول :

(... وهنا وجد التعارض بين النص القرآني ، وما جاء به التقدم من أدوات القتال ونظمه ، ومن قواعد جديدة لتوزيع الغنائم والأنفال) (ص : ١٣) .

إن التعارض الذي يفترضه الدكتور خلف الله ، ليس تعارضاً من أي لون ، وإنما هو مجرد تطور في نظم توزيع هذه الغنائم وهذه الأنفال تحت ظلال النص ، لأن الجندي والسلاح المحارب هنا وهناك ما يزالان بعض مسؤولية الدولة المسلمة . حتى الخُمْسُ الذي نص عليه القرآن الكريم . اتفق معظم المفسرين على ضرورة ردّه على الجيش المحارب ، ولصوالح الأمة المقاتلة بفئاتها جميعاً ..

أي أن الذي حدث ليس تعارضاً من أي لون ، وإنما هو تطور في نظم التوزيع ، وهنا يبدو النص الإسلامي قاعدة ينطلق منها التطور ويعود كذلك إليها ، دون أي تصادم مفتعل ، أو تعارض طارىء ، وخاصة تحت جناح الحكم الإسلامي في دولة مسلمة ... وليتنا نراجع التفاسير الموثوقة قبل أن نتاول النص تأولاً قد لا يرضي الحقيقة بحال . [انظر مثلاً ابن كثير ـ سورة الأنفال] .

[٦]

التضبيب بدل الاضاءة :

وأحياناً يصادر الأستاذ الدكتور محمد أحمد خلف الله منطق التشبيه ، فيضبِّب به القضية بدلاً من تضويئها ، لأنه في غمار حماسه لفكرة (الكوادر) التي تتولى الدعوة إلى أي فكر جديد ، ينسى خصوصية الدعوة الإسلامية في حياة قائدها الأول ﷺ ، ويضعها في مستوىٰ الانفعال الحزبي الذي ينطلق من محدودية فكرية معينة ، تصبغ كل حركة من حركاتها بصبْغ من الأنانية الصغيرة ، مع تناقض مثل هذا الفهم بالضرورة مع شمولية الإسلام وعموميته الخالدة .. يقول الدكتور خلف الله :

(... وهذا الذي يطلبه القرآن الكريم من محمد عليه السلام ، هو الذي تصنعه الأحزاب والجماعات اليوم ، إنه تربية الكوادر الحزبية) (ص : ٢٣) .

وهذه ـ كما نرىٰ ـ مصادرة فاقعة لمنطق التشبيه ، فالذي كان يفعله النبي ﷺ تحت مظلة القرآن الكريم ، كان شيئاً شمولياً وليس حركة حزبية داخل إطار عام ، سياسي أو غير سياسي .. وربما يكون الأستاذ الدكتور خلف الله قد

قصد إلى هذا المعنى الذي حددناه ، ولكن السياق الأسلوبي في كتابه ربما يوحي بغير هذا المعنى على الإطلاق .

تماماً كالذي يمكن أن يوحي به السياق الأسلوبي في قول الباحث الجليل وهو يتحدث عن قضية الجدل والحوار كاساس من أسس الدعوة إلى الإسلام :

(... والعملية الإسلامية التقدمية هنا هي حلّ قضايا الصراع بأسلوب الحوار والجدل ، وليس بأسلوب القتال ، إنه حلّ عن طريق الصراع الفكري ، وليس الصراع الجسدي) (ص : ٢٤) .

فمثل هذا السياق يمكن أن يفهم فهماً مقبولاً إذا حددنا حركة الحوار الفكري في الإسلام داخل إطار مرحلي ، ولكنه قد يفهم على أنه نفي لفكر الجهاد القتالي في الإسلام إذا أخذ هكذا على إطلاقه .. وهذا بالطبع مرفوض من وجهتين على الأقل :

وجهة منطق الدعوة التي لابدّ أن يشهر أعداؤها السلاح في وجهها .. ووجهة الواقع التاريخي الذي يؤكد انتضاء الدعوة لكل أسلحتها ، والدفع بها في وجه العالم المناوىء حتى تنتصر .

فكيف يصح بعد ذلك أن يقال : إن حلّ قضايا الصراع (في العملية الإسلامية كما سماها المؤلف) ينبغي أن يتم بأسلوب الحوار والجدل ، (وليس بأسلوب القتال) وبالصراع الفكري (وليس الصراع الجسدي) ؟ ألا يمكن أن نقبض من خلال هذا السياق على حس التعريض بقضية الجهاد في الإسلام ، حتى ولو لم يرده المؤلف الفاضل أساساً ، وهو بالتأكيد لم يُرِدْهُ ؟

إن إهدار جانب القتال والصراع الجسدي في الإسلام إهدار لنصف المعادلة العاقلة ، وتعطيل لجدلية (الفعل) التي تشكل تتويجاً تاريخياً لجدلية (الفكر) ، إذا استحال أن يزهر الفكر في تيبُّس عالمٍ بلا تفكير ، أو إذا تحتم صدام القوى الوحشية المناوئة التي لا تقنع بغير اقتلاع الفكر من أساسه بلا حوار .

[٧]

أهو خطأ مطبعي ؟ :

ونأمل أن تكون الجريرة في النص التالي من كتاب الأستاذ الدكتور خلف الله جريرة المطبعة وليست جريرة القلم الكاتب ، لأن غلاظة المقولة تؤكد أن عقلاً إسلامياً ما ، لا يمكن أن يجترح مثل هذا الإطلاق غير المنطقي ... يقول :

(... وهنا سؤال يطرح نفسه : ألا يزال العقل البشري مقيداً بسلطان الله الواحد الأحد ، الذي يدعو الإسلام إلى عبادته واتقاء غضبه ؟) .

وينقل القارىء إلى إجابة من تفسير المنار ، ولكنه قبل أن ينقله إلى هذه الإجابة يقول :

(... وأنا حين أنقل عن هذا الكتاب إنما أرجو أن يطمئن القارىء إلى الأساس الذي بني عليه التوحيد ، وكيف كان تحريراً للعقل البشري من سلطة الآلهة ، بما فيهم الله) (ص : ٣٦) .

وهذا فادح بكل المقاييس ، وأوشك أن أظن أن المؤلف لا يمكن أن يقع في مثل هذا الإطلاق الجسيم ، وأن المطبعة وحدها قد تكون مسؤولة عن هذا الارتباك الفكري والأسلوبي ، الذي يجسِّد اتجاهاً غير إسلامي بالتأكيد .. والدليل أن المؤلف نفسه يصادر هذه المقولة العشوائية بمقولة معقّلة فيقول :

(لقد حرر الإسلام العقل البشري من :

١ ـ سلطان الآلهة ـ فيما عدا الله سبحانه وتعالى ـ وجعل سلطان الله هو سلطان السنن والنواميس الثابتة التي هي من القوانين العلمية ، كما جعل سلطان الله من نوع السلطان الذي يكون للتشريعات ، أي سلطان القانون .

٢ ـ السلطات الدينية الممثلة في رجال الكهنوت من الأحبار والرهبان ومن إليهم .

٣ ـ سلطان النبوة من حيث إعلان إنهائها كلية ، وتخليص البشرية منها .

وكل تلك خطوات في سبيل تحقيق التقدم) (ص : ٤٤) .

وإذا كنا قد افترضنا أن الخطأ في المقولة الأولى خطأ المطبعة ، وليس خطأ المؤلف ، فإن الخطأ في مقولة إنهاء سلطان النبوَّة ، وتخليص البشرية منها ، لا يمكن أن يكون خطأ المطبعة ، أولاً : لأنه تردد في الكتاب بهذا القطع الحاسم اكثر من مرة ... وثانياً : لأن السياق الأسلوبي والفكري يؤكدان أن هذا المضمون مقصود لكاتبه للأسف ... ونتساءل : هل يمكن أن يكون مثل هذا التعامل مع منطق النبوة مقبولاً من عقل إسلامي كعقل كاتبنا الكبير ؟

إن إعلان الإسلام ختم النبوات بمحمد ﷺ ، ليس إنهاءً من أي لون لسلطان النبوة ، وإنما هو على النقيض تأكيد لسلطان النبوة ، وإذا شئنا فلنقل لسلطان كل النبوات .

إن أي نبي من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم ، مقدس من وجهة كونه مبعوثاً من الله ، وحاملاً لوحيه ، وما دام هذا الوحي لم ينسخ بوحي آخر ، فإن سلطانه يظل ممتداً في أبد التاريخ بلا فكاك ... أي أننا مع نبي كريم كمحمد ﷺ لا يمكن أن نتصور إسلامنا كاملاً في غياب سلطانه علينا ، أي الإيمان الملزم بكل أقواله وأفعاله ، وبديمومة التواصل معه ، واستمرارية هذا التواصل .

فإذا تجاوزنا هذه المسلمة ، إلى تأمل كون الرسالة الإسلامية كانت وما تزال إطاراً إلهياً لكل ما في الشرائع السابقة من مشاعل التقدم وتحضير الحياة ، أدركنا أن سلطان النبوة لم ينته ، ولا يمكن أن ينتهي ، إلاَّ بانتهاء الحياة ذاتها ... فكيف بعد ذلك يمكن أن يقال : إن سلطان النبوة قد انتهى ، وإن الإسلام نفسه هو الذي أعلن هذا الانتهاء ، وأعلن بجواره تحرير العقل البشري من أوهاقه ، إذا جاز أن يقال إنها أوْهاق ؟

ونخشى أن يكون انحصار المؤلف في تأمل كلمات من آية واحدة هي قوله

الأسس القرآنية للتقدم وحوار حول بعض مقولاته

تعالى : ﴿ ... يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوَاء ... ﴾ هو الذي جر إلى مثل هذا الفهم ، ومعروف أن القضية لا يحكم فيها بنص واحد ، وعزل بقية النصوص المكملة التي قد توجه القضية بكاملها في اتجاه مختلف .

لقد كرَّر الباحث ثورته غير المبررة على ما أسماهُ بـ (نظام النبوة) في مثل قوله :

(... وتبقى بعد ذلك عملية تحرير العقل البشري من السلطة الدينية المتمثلة في نظام النبوة) (ص : ٤١) .

أي أن اختيار النبي ﷺ من عنصر بشري كان تحريراً للعقل الإنساني من سلطة أعلى من البشر .

وفي مثل قوله كذلك في الصفحة نفسها ، شارحاً مسيرة الإسلام في رفع الإصر عن العقل الإنساني من وجهة نظره :

(... بل مضى الإسلام إلى ما هو أبعد من هذا ، من حيث خطوات التقدم التي قطعها في ميدان النبوة ، فقد أعلن إلغاء هذا النظام كلية ، ولم يكن معنى هذا إلاَّ أن وصاية السماء على أهل الأرض قد انتهت ، وأن البشرية قد أصبحت من التعقل والرشاد بحيث تترك إلى نفسها ، وبحيث تكون قيادتها لنفر منها تختارهم هي ، وليست تختارهم السماء لها) (ص : ٤١) .

إن تضبيب الرؤية هنا جاء ـ ربما ـ من عدم التفريق المنهجي بين الإلغاء والختم ، وبين الوصاية والهداية ، وبين الاختيار والفرض .. مما يؤكد أن (المنهجية) أو فلنقل (البصيرة المنهجية) في هذا الموطن بالذات من الكتاب ، قد غابت ، أو هي قد اختلَّت اختلالاً غير متوازن على الإطلاق ، وأن حساً من التمرد الفاقع وغير المعقل قد استولى على سياق هذه السطور ، فجعل منها إدانة زاعقة ، وكان يمكن بشيء من النظر الهادىء أن يجعل منها وثيقة من وثائق تحرير العقل الإسلامي في ظل إسلامه العظيم .

[٨]

خلط بين الدين وعلمائه

واستطراداً مع ثورة المؤلف الفاضل ، يرفض أن يهتدي العقل البشري بشيء آخر غير ذاته ، أو أن يقلِّد (أحداً من رجال الدين لأنه رجل دين) (ص : ٤٠) .

ويبدو أن الجانب الغائم هنا من القضية يتجسد دائماً في الخلط بين رجل الدين وما يمثله رجل الدين من فهم متخصص لمقولات الدعوة ... فإذا كان المقصود برجل الدين هذا الكائن المادي بعيداً عن انتمائه العقيدي والفكري ، فما نظن أن ديناً حارب هذه الظاهرة العبودية الوبيلة التي تلقي بزمامها إلى غيرها تقديساً أو تبعية أو تفريطاً ، بمثل ما فعل الإسلام ... أما إذا كان المقصود برجل الدين هذا العقل المتخصص ، أو هذا السلوك الملتزم . أو هذه المكابدات الإنسانية الأنموذجية ، فإن الدعوة إلى احتذائه وتقليده والاستفادة منه على طريق التقدم الحضاري والعقيدي ، تبدو دعوة عاقلة وحتمية بكل المقاييس .

ونعجب كيف يذهب بعض الفرقاء من الناس إلى تقديس بعض الزعماء السياسيين والاجتماعيين ، وليس مجرد تقليدهم فقط ، ثم يرفض هؤلاء الفرقاء تقليد علماء الدين الذين يملكون بصيرة متخصصة في فهم علوم الدين ، وتسليطها على قضايا الواقع الاجتماعي بكل أبعاده .

وهذه بالطبع ليست دعوة إلى تقليد نوعيات من الجهلة والمشعوذين وأحلاس الموائد الفارهة .. وإنما هي دعوة إلى احترام اجتهاد العقل الإسلامي المجتهد ، والسير على ضوء ما تركه في زوايا الطريق من أضواء نحن في حاجة شديدة إليها .

لقد اهتدىٰ المؤلف نفسه بمقولات الشيخ محمد عبده ـ وهو من علماء الدين البصراء ـ فهل يمكن أن نقول : إنه (قلَّد) وإن (تقليده مرفوض) وبالتالي فإن البناء العضوي في كتابه ـ من هذه الوجهة ـ آيلٌ للسقوط ؟

[٩]

القلم أمانة :

وبعد ... فإن الفكر الإسلامي المعاصر محتاج إلى الحركة الفاعلة ، ولكن بشروط إسلامية وليس في غياب كل الشروط ... وما يبدو اجتهاداً أحياناً قد يعوزه حسّ الالتزام المجتهد ، حتى نضمن مسيرة عادلة نحو أهدافنا الحقيقية ، وليس نحو أيَّة إثارة مقصودة أو غير مقصودة .

ولنتذكر دائماً أن القلم أمانة في أيدينا ، وأن الكلمة شرف صاحبها ، وأن اندفاعنا في مراحل سِنِّيَّةٍ معينة لا يبرر لنا تواصل هذا الاندفاع ، فنحن في حاجة لازبة إلى ضبط مناهجنا وفق إيقاع ديننا ، وليس النقيض .

ويخيل إلي أن الباحث الأستاذ الدكتور محمد أحمد خلف الله ، قد برَّ في مواطن كثيرة من كتابه : (الأسس القرآنية للتقدم) بكثير من هذه القيم .. وأنه كذلك ـ في مواطن أخرىٰ ـ لم يستطع ، أو لم يرد أن يبرّ بكثير منها ، ربما تحت ضواغط العمل ، وربما تحت وطأة الحماس العقلي ، ولكنه هنا وهناك أعطى ما يستحق الحوار ، وإيقاظ الوعي المفكر .

وأستغفر الله لي وله ، من كل زلة قلم ، ومن كل جماح في غير طريق الحق ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ... والحمد لله أولاً وآخراً .